SIBA'I

LIMADHA AKHFAQAT AL-JAMI'AH

مصطفى السباعي

لماذا أخفقت الجامعة العربية ؟

وكيف تصبح أداة نافعة للعرب ؟

نص الكلمة التي القاها الدكتور مصطفى السباعي
في احتفال الهيئة الوطنية في لبنان
بالذكرى الثامنة لجامعة الدول العربية
في ٥ رجب ١٣٧٢ = ٢١ مارس ١٩٥٣

al-Sibā'ī, Muṣṭafā

مصطفى السباعي

Limādha akhfaqat al-Jāmi'ah

لماذا أخفقت الجامعة العربية ؟
وكيف تصبح أداة نافعة للعرب ؟

نص الكلمة التي القاها الدكتور مصطفى السباعي
في احتفال الهيئة الوطنية في لبنان
بالذكرى الثامنة لجامعة الدول العربية
في ٥ رجب ١٣٧٢ = ٢١ مارس ١٩٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اقامت الهيئة الوطنية في لبنان حفلة كبرى بمناسبة الذكرى الثامنة لتأسيس الجامعة العربية، وذلك مساء السبت الواقع في ٥ رجب ١٣٧٢ الموافق ٢١ من آذار (مارس) ١٩٥٣، وقدحضر الحفلة رئيس المجلس النيابي ورئيس مجلس الوزراء والوزراء والنواب والعلماء وفريق كبير من وجوه العاصمة وشبابها وسيداتها

وتكلم في الحفلة كل من الدكتور سليم حيدر وزير المعارف والاستاذ فؤاد عمون المدير العام لوزارة الخارجية ،والدكتور مصطفى السباعي نائب رئيس المجلس النيابي السورى سابقاً ، والاستاذ نبيه فارس رئيس قسم التاريخ بالجامعة الاميركية في بيروت ، والاستاذ رمضان لاوند .

وقد كان لكلمة الدكتور السباعي صدى عظيم في مختلف اوساط العاصمة لما اتسمت به من الصراحة والجرأة في الحديث عن اخطاء الجامعة العربية واسباب فشلها. وقد رأينا -نحن فريقاً من تلاميذ الاستاذ السباعي - نشر هذا الخطاب القيم ليكون في متناول ايدي الجمهور وحملة الرأي والقلم في امتنا ، عسى ان تتعاون القلوب المخلصة على اشادة بناء نهضتنا الحديثة على اسس ثابتة لا تضطرب ولا تنحرف .

فريق من طلاب الجامعات
في لبنان

بيروت { ٢٧ من رجب ١٣٧٢
١٢ من نيسان ١٩٥٣

ينقسم حديث الناس عن الجامعة العربية في مثل هذه المناسبات الى ناحيتين اثنتين : الفكرة التي قامت عليها الجامعة ، والخطة التي سارت عليها الجامعة لتحقيق تلك الفكرة .

فكرة الجامعة

اما الجامعة العربية كفكرة، فنحن من الذين يرونها امراً لا بد منه مهما طال الزمن او قصر ، ان وحدة العرب واجتماع شملهم ووقوفهم بين الامم كأمة واحدة في وطنها وفي رسالتها هو مما لا مجال للنزاع فيه ، لانه منطق الحياة ، ومنطق التاريخ ، ومنطق الحوادث ،ولندع لاولئك الذين يشككون في هذه الحقيقة عن طريق العلم اوعن طريق السياسة او عن طريق العاطفة ، او عن طريق التاريخ المصطنع ، او عن طريق الخوف الموهوم ، لندع هؤلاء اساليبهم في نقاش الفكرة العربية او محاربتها او اضعافها فان الزمن وحده هو الذي سيجعل من نقاشهم وتشكيكهم عبثاً كان يحاول ان يسد على الحق طريقه ،ومتى بدأت الامم تشق طريقها الى الحياة، فارادتها وحدها هي التي تحكم على علم العلماء وفلسفة الفلاسفة وعبث العابثين

خطة الجامعة

واما الجامعة العربية كوسيلة وخطة ، فالناس ازاءها ايضاً فريقان: فريق يحسن الظن ويغدق الثناء وينسب اليها المعجزات ، وفريق يسيء بها الظن ويلحق بها وزر ما اصاب العرب من محن . واني لاصارحكم اني من الفريق الثاني . وبهذه الروح سأنقد الجامعة العربية واتكلم عما منيت به من هزائم منكرة وعما اخفقت فيه من محاولات اخفاقاً ذريعاً .

ان الامم قد تصاب بنكسات ، والدعوات قد تمنى بهزائم ، وان المصلحين قد يتعثرون في اول خطوات الطريق ، ولكن هزيمة الجامعة واخفاقها ليس من ذلك في قليل ولا كثير .. ان هزيمتها هزيمة القادر على الانتصار ولكنه ابى الا ان ينهزم ، واخفاقها اخفاق القادر على النجاح بيد انه ابى الا ان يفشل .

لقد كان لدى زعماء الجامعة العربية حين قيامها كل وسائل النجاح والنصر : من ظروف دولية ، ومن وعي قومي عام ، ومن قلوب تخفق لرؤية الوحدة العربية حقيقة قائمة ، لقد كانت شعوب العرب ورقابهم واموالهم وثرواتهم وبترولهم واحاسيسهم ، كل ذلك كان اسلحة ماضية في المعارك التي خاضتها الجامعة العربية ، ولكن الرؤساء ابوا الا ان يجعلوها اسلحة مفلولة تلحق بنا اشنع الهزائم .

لماذا فشلت الجامعة ؟

ولا مجال الآن لتعديد اسباب هذا الفشل ، ولكني اقتصر على امرين رئيسيين :

لم تنشأ الجامعة بارادة الرؤساء

اولا — ان الجامعة حين قيامهـــا لم تنشأ بارادة من الرؤساء دفعتهم لتحقيق آمال شعوبهم في الوحدة والاجتماع ، وانمـا نشأت بارادة اجنبية كان من مصلحتها ان تقوم هذه الجــامعة في تلك الظروف ، ولم يكن عند العرب مانع من ان تلتقي المصلحـــة الاجنبية مع المصلحة العربية ، ولكن المؤسف ان المصلحة الاجنبية ظلت دائماً وابداً هي محور نشاط الجامعة من حيث يدري اكثر اعضائها او لا يدرون . فبدا رجال الجامعة بوجه الممثلين لادوار اعدت من قبل لتلعب لعبتها المكشوفة فيما بعد ، ورضي الممثلون لانفسهم ان يكونوا هدف تصفير الجماهير وسخريتها ايضاً !.

ثانياً — ان الجامعة كانت توجهها عقليات متخلفة عن الزمن تتسم بهذه الميزات :

المطامع الشخصية

أ — العمل في دائرة المطامع الشخصية ، وليست قضية فلسطين الا مثلاً للمطامع التي ادت الى تلك الكارثة ، لقـد كان كل جيش حذراً من الآخر ، وكان كل ملك او رئيس يخشى ان يستغل سواه

هذه الحرب لو نجحت ، ولا انسى – ومن واجبي ان اذكر هـذه الحقيقة ليذكرها احفادنا من بعد – اننا حين كنا في القدس واحسسنا بخطر سقوطها في ايدي الاعداء ، وبدأنا نرسل صرخات الاستغاثة كان مما قاله لنا بعض الرؤساء الكبار في الجـــامعة : لا تهتموا بسقوطها فسنستردها نحن واخواننا !.. ولما اوشكت القـدس ان تسقط في ايدي الاعداء في احدى المعارك الضارية ، واخذنا نستنجد برؤساء الجامعة في الليل .. كان الجواب من احد رؤسائها الكبار: اذا كنتم تشعرون بالخطر فانسحبوا منها !. قلنا : ولكنها القدس! وفيها اربعون الف لاجيء، ولو انسحبنا منها لتمت افظع مجزرة في التاريخ ؟! فكان الجواب .. ولكنكم عندنا اغلى !.. واقسم لـكم اننا لو اصغينا يومئذ الى تلك النصائح الغالية ! لرأى العالم اليوم اعمدة هيكل سليمان على انقاض المسجد الاقصى و كنيسة القيامة !.

ازدراء قوى العرب

ب – النظر الى امكانيات العرب وقواهم نظرة ضعف وازدراء، والى امكانيات غيرهم نظرة قوة وإكبار ، وعلى هذا الاساس كانت توجيهات الدول الاستعمارية تلقى آذاناً صاغية في دوائر الجامعـة ويستجاب لها بدون ابطاء ، وكان العذر في انفسهم دائماً اننا ضعفاء لا نستطيع ان نقف في وجـــوه اولئك الاقوياء .. وليس امر

الاستجابة الى طلب الهدنة الاولى الا مثلاً لازدراء قادة العرب بقوى امتهم وشعوبهم ، واعترافهم في قرارة انفسهم بانهم لا يستطيعون ان يبدوا حراكاً تجاه رغبات الدول الكبرى .

تضليل الجماهير العربية

جـ - اعتبار الجماهير العربية كتلة من غُثاء الشعوب تؤخذ بالعاطفة ،وتخدع بأكاذيب البيانات وبلاغة الخطب والتصريحات .. لقد كانوا - في معركة فلسطين - يعطوننا النصر في بيان،ويلحقون بنا الهزيمة في ميدان !. وكان كل شيء يسير وفق ما تبيت الدول الكبرى ،ورؤساؤنا يحققون لهم اهدافهم ثم يأبى فريق منهم الا ان يصموا آذاننا بالعزم على مواصلة الكفاح في البر والبحر والجو ،كما كان يقول تشرشل تماماً في ايام الحرب !. ولكن غيرنا كان يقول هذا والدموع تنحدر من عينيه ، اما بعضهم فقد كان يقول لنا هذا واموال فلسطين تملأ يديه ، والضحك من جماهيرنا يكاد يمزق رئتيه !

عدم اعتبار مصالح العرب

د - اعتبار الجامعة العربية رابطة بين دول لا اداة لتجمّع امة ! فكانت مصالح كل دولة هي التي تسيطر على عقول رجال الجامعة ، وليس ادل على ذلك من انهم قد اصدروا من البيانات التي تؤمن بالتعاون والوحدة ما يملأ اسفاراً ضخمة ، ولكن الجامعة

لم تخط حتى الآن خطوة واحدة ايجابية في سبيل التعاون الصحيح العملي المثمر ، ذلك لان ما ينفع دولة من هذه الخطوات ، قد يضر باخرى ، ولو كانت مصلحة الشعوب العربية هي التي ينظر اليها رجال الجامعة في كل مقرراتهم لما تضاربت المصالح ، ولكنها مصلحة دول او كيانات مبعثرة يريدها بعض الرؤساء حدوداً فاصلة الى الابد بين ابناء امة واحدة !

رجعية رؤساء الجامعة

هـ — جمود رؤساء الجامعة في وجه التطور الذي شمل العالم العربي في افكاره ووسائل معيشته ، فلقد ابى اكثر هؤلاء الرؤساء حتى اليوم ان يفهموا ان معركة الحياة التي يخوضها العرب اليوم ليست معركة سلاح او سياسة بقدر ما هي معركة فكر ونظام وعلم ... لقد كانت قوانا واليهود في معارك فلسطين غير متكافئة .. كانت المعركة بيننا وبينهم معركة بين فوضى وتنظيم ، وفقر وغنى ، وجهل وعلم ، وعاطفة وعقيدة .. فهل تعجبون بعد ذلك اذا انتصر النظام على الفوضى ، والعلم على الجهل ، والعقيدة على العاطفة الجاهلة ؟!.

ولا يزال حتى الآن كثير من رؤساء الجامعة لا يريدون ان يفهموا ان ابن القرن العشرين لا يغلبه ابن القرن الخامس عشر بسلاحه ونظامه وبجهله وبطراز معيشته ! وان جماهير وفدت الى

فلسطين من انحاء الدنيا لعقيدة نشئت عليها منذ الصغر ، لا يمكن ان تغلبها جماهير حشدت من مختلف دنيا العروبة لغاية لا تعلمها، ولفكرة لم تغذ بها ولا ربيت عليها !.

الهزيمة هزيمة الرؤساء وحدهم

هذه ايها السادة هي اهم ما تمتاز به العقلية التي كانت توجه سياسة الجامعة ، فانهزمت والصقت بنا عار هذه الهزيمة .

اما نحن فما زلنا نعلن منذ انتهت معركة فلسطين ، اننا لم نخسر الا الجولة الاولى منها ، وان تلك الجولة لم تخسرها شعوبنا ولا امتنا ،وانما خسرها رؤساؤنا وملوكنا وقادتنا العسكريون فحسب !. فلا مجال ليائس ولا لشامت ان يشمت من هزيمة الجامعة فيتخذ منها وسيلة لمحاربة الفكرة التي قامت عليها .

لا تزال الجامعة محط آمالنا

ان فكرة الجامعة هي فكرة القدر الذي ابى الا تكون دنيا العرب دنيا واحدة في مصالحها وآلامها وآمالها، وان تمايزت في قطر منها عن قطر ، وتباينت في ثقافتها او مشاكلها ما بين بلد وبلد . . ومن ثم فنحن لا نزال نرى الجامعة العربية رمزاً لامالنا البعيدة ، ومهوى لافئدتنا الكليمة ، ولكن ذلك لا يتم الا اذا سارت الجامعة بعد الان على خطى جديدة وعقلية جديدة ، تقوم على الحقائق التالية :

مصلحة الجماهير قبل مصلحة العروش

اولاً : ان مصلحة العروش والرئاسات هي من مصلحة الشعوب والجماهير .. فلا سلطان لعرش فقد سلطانه في قلوب شعبه ، ولا كرامة لرئيس فقد شعبه كل مظاهر الكرامة في حياته !

ان كرامة امتنا في ان تتحرر من الجهل والفقر والضعف والظلم والخوف والرذيلة .. فليحرر ملوكنا ورؤساؤنا شعوبهم من هذه القيود ، تكن لهم كرامتهم وسلطانهم في الافئدة والقلوب ، وما دام في دنيا العرب شعب يخاف من الحاكم ان ينقده فيكبل بالاغلال ، وحاكم يخاف من معارضيه في الرأي فيرى فيهم متآمرين على حكمه وحياته .. فلن تستطيع الدنيا العربية ان تحطم قيود الاعداء من حولها .. ان الشعوب لا تساق الى ميادين المجد بالنار والضغط والاكراه ، وانما تساق اليها بالعقيدة ولذة التضحية ورغبة الاستشهاد

كبرياء الشعب ان اذللتها لن تراه في العلى يهوى الزحاما
وهوادي الرأي اما احتبست في صدور القوم افلتّ الزماما

ان على ملوك الجامعة ورؤسائها ان يعطوا شعوبهم الحرية ، لا هبةً ولا منةً ولا صدقة ! بل حقاً مقدساً لهذه الجماهير يعادل حق الحياة بل لا حياة بدونه ! فمن اغتصبه كان شراً ممن يغتصب الاموال ، ومن حال دون تمتع الامة به كان اشد في نظر الحق والتاريخ جريمة ممن

ينتزع من نفس واحدة حياتها .. ان حرية الشعوب هي مفتاح انطلاقها في معارج المجد ، فمن شاء ان يدخل من باب الخلود فليفتح لامته باب الحرية على مصراعيه، ومن ابى الا ان يغلقه دونها فليفعل ثم لن يكون اعز على الله من فرعون وهامـــان وفاروق منالا ولا سلطانا ! ..

امتنا ذات قيمة عظيمة

ثانياً : ان امتنا شيء عظيم في عالم الفكر ، وفي عالم الحضارة ، وفي عالم السياسة ، وفي عالم الاقتصاد ، وفي عالم الحرب ، وفي عالم السلم ، وهي تستطيع ان تتوج كل فريق من المعسكرين المتصارعين اليوم باكليل الهزيمة او النصر ان شاءت ، فلماذا نعطي اكليل النصر هدراً من غير ثمن ؟ لماذا نصوغ من دماء شبابنا ومن ثروات بلادنا ومن حرية امتنا تاجاً نضعه فوق رؤوس الاقوياء ، وهم لا يزالون يجحدون حقنا في الكرامة ، بل حقنا في العيش ببلادنا احراراً ؟ لماذا نذهب مع من يريد منا ان نذهب معه الى حرب مدمرة لا تبقي ولا تذر قبل ان نقول له : اخرج من وادي النيل ، ومن ارض الشمال الافريقي العربي ، ومن المحميات العربية على الخليج العربي ، ومن كل ارض لنا لا يزال الغاصبون يحتلونهـــا ويذلون كبرياءنا فيها ؟ ! .

لماذا يزجون امتنا في الحرب ؟

ان امتنا لا ترضى ان تجر الى حرب تداس فيها مقدراتها باقدام المتصارعين .. واذا كان لا بد لنا من ان نخوض حربا ، فليقولوا لنا : لماذا ؟ وما هو الثمن ؟ الدفاع عن حريتنا ؟ فليتركونا في بلادنا احراراً نتصرف بمقدراتها وثرواتها تصرف الاحرار بشؤونهم! ام الثمن هو ان ندفع خطراً موهوماً تفصلنا عنه الاف الاميال ؟ ولكن لم يريدننا ان لا ندفع الخطر الجاثم فوق صدورنا وعلى حدودنا وفي قلب بلادنا ؟.. ان امتنا اكرم في نظر التاريخ وعند الله من ان تعطي رقبتها للجزارين الذين طعنوها بسكين في ظهرها ما تزال دماؤها تقطر منها ولا تزال جراحها تتنزى !

وجوب العناية بالروح والاخلاق

ثالثاً : ان الامم لا تبني امجادها الا بقوتين متعاونتين : قوة من سلاح وقوة من روح .. وانا لا اريد بالروح تلك الانهزامية الاتكالية الواهنة التي تفر من الحياة ، ولا اريد بها تلك القوة المكذوبة التي نسجها الغرور اوهاماً تملأ ادمغة الشبان الابرياء ! كلا ! انما اعني بالروح تلك القوة المبدعة الخلاقة التي تنشيء الحياة .. تلك الفضائل التي بنت بها امتنا الممالك وشادت الحضارات ، وخاضت بها معارك التحرير في القديم والحديث ، انها الروح المستمدة من الايمان بالله

وبشرائعه ، وهي الروح التي تفقدها امم الحضارة اليوم ، فهي ابداً ما تزال تنقلب من جحيم الى جحيم . ولن تعرف الاستقرار والسعادة الا يوم تتعرف الى روحنا نحن ، وتتقدم لتأخذها من يدي محمد والمسيح عليهما السلام !.

ان امتنا وهي على عتبة حياة مليئة بتكاليف الكفاح واعباء النضال ،في حاجة الى هذه الروح التي تحبب لها الفداء ، وترخص الاموال ، وترغب في الصبر ، وتربى على الاخلاص ، وتبث في النفوس انبل عواطف الحب والاخاء والوفاء . وان الامتناع عن الاستفادة من هذه الروح خوفاً من الطائفية البغيضة ليس الا جهلاً بطبيعة هذه الروح وبحقيقة امراض هذه الامة .

الاديان حرب على الطائفية

ان الطائفية عداء وخصام واستعلاء طائفة على طائفة، وظلم طائفة لاخرى ،فمن يستطيع ان يجرؤ على القول بان هذه هي روح الدين في قرآنه وانجيله ؟ وان هذه هي تعاليم الدين في اسلامه ومسيحيته ؟

حين اشتد اذى قريش بالمسلمين لم يجد رسول الله خيراً من نجاشي الحبشة يلجأ اليه اصحابه فيجدون عنده الأمن وحرية العبادة . فامر صحابته ان يهاجروا الى الحبشة ،وكان الملك النصراني عند ظن الرسول الاسلامي ، فاستقبلهم احسن استقبال وابى ان

يسلمهم الى قريش وقال لهم : بل تنزلون عندي اعزة مكرمين ولما جاء نصارى نجران الى الرسول في المدينة استقبلهم في المسجد وانزلهم فيه، وترك لهم حرية الصلاة في مسجده وفق ديانتهم ،فكانوا يصلون صلاة النصارى في جانب ،ورسول الله يصلي صلاة المسلمين في جانب!.

وهكذا تآخى العارفون بدينهم .. يوم كان النصارى يفهمون روح مسيحهم ،ويوم كان الاسلام يعلن للدنيا مبدأ حرية الاديان وتقديس الشرائع وتكريم موسى وعيسى واخوانهما من انبياء الله ورسله ، فمتى حدثت الطائفية في تاريخنا ؟

الطائفية دخيلة على امتنا

الا انها لم تحدث في عصر محمد رسول الله ، ولا في عصر خلفائه الراشدين ، ولا في عصور الامويين والعباسيين، وانما حدثت يوم ابتعدنا جميعاً عن اديانا وسمحنا للمتاجرين بها ان يعكروا صفو قلوبنا ، وللاعداء ان يفرقوا وحدة صفوفنا .. يومئذ فقط مدت الطائفية رأسها لتلصق بادياننا وبأمتنا مخازي ليست منها . فالطائفية ليست عميقة الجذور في اديانا ولا في طبائعنا وانما هي بذرة خبيثة دخيلة نحن الذين سمحنا لها ان تنمو وتترعرع في تربتنا فحقت علينا لعنة الله .. وان القضاء عليها لن يكون بكلمات النفاق من السياسيين المحترفين ،ولا بمؤتمرات تعلن الوحدة

متسترة بطائفية مقنّعة . وانما يجب القضاء عليها بعلاج من داخل انفسكم انتم ايها الناس .. من ضمائركم ، من قلوبكم ، من اخلاقكم، من ايمانكم ، من قرآنكم وانجيلكم، من محمدكم ومسيحكم.. هنا هنا علاج الطائفية المقيتة .. وهنا هنا يتم الشفاء !.

ان امتنا وهي ترث جهالة العصور ، وخرافة الجهالة ، وانحطاط الخرافة ، ليس لها ما يجدد عزيمتها ويفتح بصائرها الا ان تجلى لها روحها الموروثة الدفينة ،وتستفيد من تراثها المشرق البناء ،وتستلهم نظامها الجديد من قيمها الاخلاقية والتشريعية ، وكل إعراض عن الاستفادة من هذه الروح تعطيل لمواهب امتنا من ان تعمل ، ولسلاحها من ان يصقل ، ولفضائلها من ان تتجسد على الارض المعذبة جيلاً يمشي باقدام الانسان وارواح الملائكة .

نداء الى رؤساء الجامعة

اما بعد فاني وانا اعلم اني في مكان لا يسمعني فيه رؤساء الجامعة وملوك العرب وقادتهم ، لا اجد بداً من ان ارسل هذه الصرخة وانا واثق من انها لن تضيع في ثنايا التاريخ .

متعوا شعوبكم بالحياة السعيدة

ان على ملوكنا ورؤسائنا ان لا يحولوا بيننا وبين الحرية والحياة السعيدة ، لنشعر بكرامتنا في انفسنا قبل ان نطلب كرامتنا

في نفوس اعدائنا ، ان خيراً لهم واكرم لقيادتهم واعظم لمكانتهم ان يقودوا امة من الاسود ، من ان يجروا وراءهم قطعاناً من الغنم !.

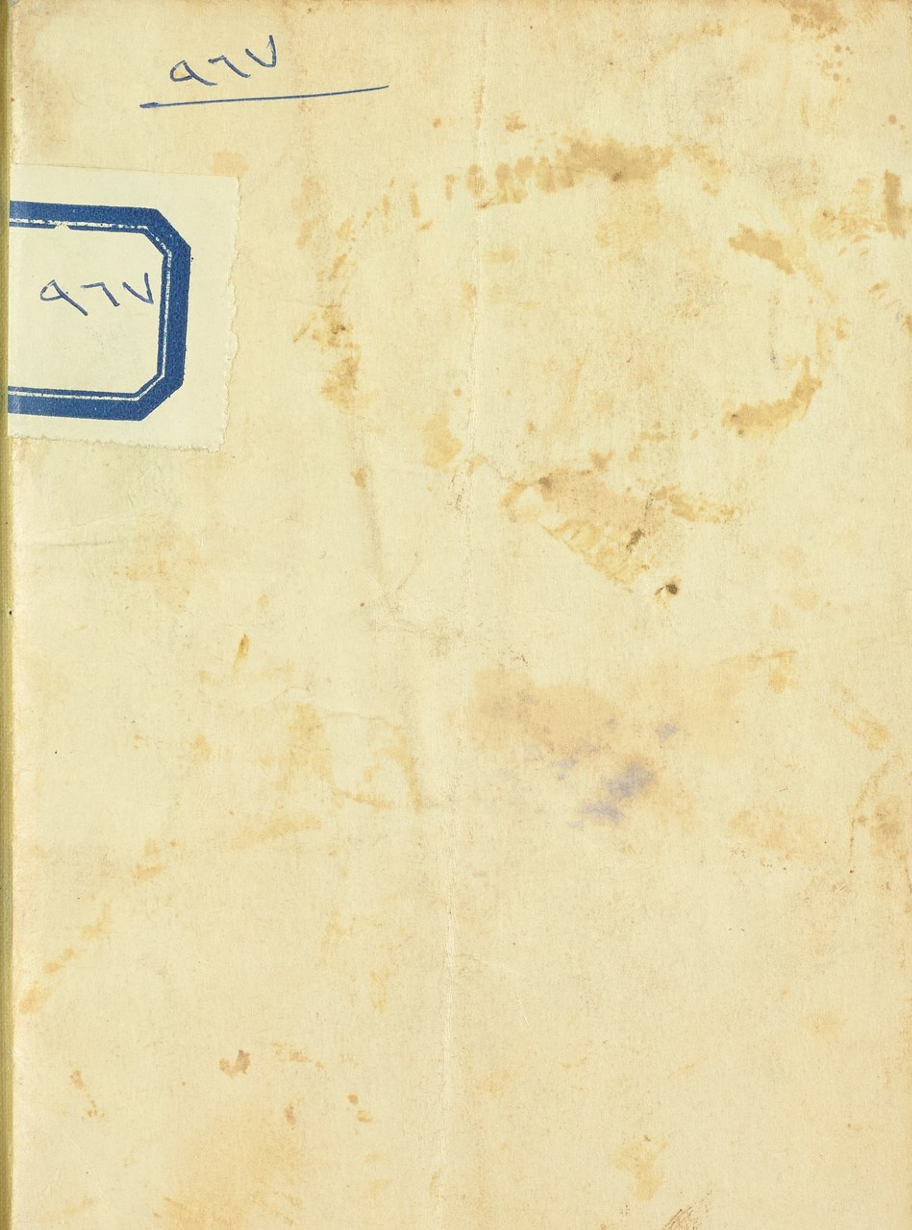
لا تبيعونا في سوق المصالح

وان على ملوكنا ورؤسائنا ان يعلموا حين يفاوضون باسمنا حول مشاريع يراد لنا ان نوافق عليها .. اننا نحن ابناء الشعب نحن الذين سندفع الثمن من دمائنا ومن اموالنا ومن اراضينا ومن ذرارينا ومن حرماتنا ومقدساتنا ، ولن نكون امة تبيض وجوه قادتها يوم اللقاء ، الا اذا دافعنا عن بلادنا وحرياتنا ونحن اقوياء احرار لا نباع في سوق المصالح الخسيسة بيع الرقيق على ايدي اخس النخاسين ذمة وضميراً !..

استفيدوا من قوانا الروحية

وإن على ملوكنا ورؤسائنا ان يتركوا قوانا الروحية تعمل عملها الانشائي في كياننا الجديد ، وخير لهم ان يرأسوا مجتمعاً يزخر بالفضائل ، من ان يكونوا على رأس امة انطفأت فيها شعلة الحياة الكريمة لانها فقدت في قلوبها اشراقة الروح المؤمنة ..

هذا هو حكم الحق ، وصدق الحديث ، وفصل التاريخ ، وكل انحراف عنه ضلال ، وكل تجاهل له غباء ، وكل محاربة له جريمة وفناء.


٩٦٧
٩٦٧


Princeton University Library
32101 072235680